

## الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال

في المحيط الهندي وشرق أفريقيا والبحر الأحمر

افتتح الأمير هنري الملاح البرتغالي سنة ١٤٢٠ سلسلة المحاولات الأوربية للكشف الجغرافية ، وكان استيلاء العثمانيين على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ سبباً من الأسباب الإضافية التي أدت إلى ازدياد هذه المحاولات ، لناهضة السيطرة البحرية الإسلامية عموماً . وكان أول عمل لهذا الأمير هو الاستيلاء على ميناء سبته ، واكتشاف المنطقة الواقعة جنوبي إقليم موريتانيا . وتمكن البرتغاليون بذلك من جمع المعلومات عن تجارة العرب وقوافلهم التي تسير بين المغرب وتمبكتو والسنغال ، وحاولوا تحويل هذه التجارة إلى أيديهم . وكانت الأحوال المالية لا تسمح بإرسال أكثر من سفينتين أو ثلاث ، لكشف ساحل أفريقيا الغربي ، ولهذا لم يتقدم البرتغاليون في خطواتهم ، بالرغم من كثرة عدد مشروعاتهم ، إذ لم تصادف حملاتهم في طريقها سوى شواطئ تغطيها الرمال ، وتنعدم فيها الحياة ، كما أنهم لم يجدوا ميناء لدخول سفنهم ، واعتقدوا بذلك أنه لا توجد حياة في الجنوب ، كما تقول الخرافات القديمة . وبعد محاولات ظلت حوالى الثلاثين عاماً وصلت السفن البرتغالية إلى أرض غنية بخضرتها ومزروعاتها وحيواناتها ، وتسيطر عليها مجموعات قوية من الإفريقيين ، فكان هذا الكشف مدعاة لدحض النزاع القديمة التي توارثها الأوروبيون .

وازداد أمل البرتغاليين في الوصول إلى الهند بعد سنة ١٤٩٧ م، وهي السنة التي مرت فيها أول سفينة برتغالية على ساحل أفريقيا متجهة نحو الشرق . ووصلت الأخبار إلى الملك عمانويل الأول بوجود موانئ على ساحل أفريقيا، فجعل النشاط البرتغالي على ساحل أفريقيا الشرقي ضمن مسؤوليات موظفي الدولة ، ولذلك لم يسمح لأى فرد بالقيام برحلة نحو الشرق ( آسيا ) . . . وكان

الملك عمانويل الأول هو الذى يمول هذه الرحلات من الموارد الملكية، أو من أموال القروض، وحاول أن يكون له نصيب الأسد فى التجارة بين أوروبا وآسيا، ما عدا بعض استثناءات قليلة.

ويبدو من الضرورى هنا أن تنتقل إلى موضوع العلاقات بين الدولة العثمانية ودول البحر المتوسط، قبل أن تنتقل إلى موضوع الصراع البرتغالى فى المحيط الهندى والمناطق المجاورة له.

فن المعروف أن جماعات من القراصنة الأوربيين كانوا ينقضون على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، وتعودوا يبيع غنائمهم والحصول على ما يحتاجون إليه من موانئ البندقية على البحر الإدرىاتى وبحر إيجه. وكانت هنالك أيضاً اشتباكات بين جماعات من الجنود المرتزقة، من اليونان والألبان، وبين العثمانيين. وكانت البندقية تخشى وقوع اصطدام بين القوات العثمانية وقواتها، ولذا أصدرت التعليمات إلى ضباط بحريتها بأن يتحملوا المشاق، وألا يفقدوا سيطرتهم على أنفسهم، تحت أى ضغط عثمانى، لأن أية حادثة خطيرة سوف تجلب المأسى للبندقية التى فقدت حينذاك الكثير من نفوذها لدى الباب العالى، وخاصة بعد أن فقدت صديقها إبراهيم باشا الذى أعدم فى عام ١٥٣٦. ورأت البندقية أنه فى حالة وقوع حادث، فإنه سوف يكون من الصعب لديها أن تسترضى السلطان، ووضحت هذه الصعوبة عندما هاجمت سفن بندقية عدداً صغيراً من السفن العثمانية كانت تحمل مبعوثاً من السلطان سليمان إلى البندقية. وقامت القوات العثمانية بتخريب كورفو أخذاً بالنار، ووجدت البندقية أنه لا أمل فى الوصول إلى اتفاق سلام مع العثمانيين، لذلك رحبت بالدخول فى حلف مع البابا والإمبراطور شارل الخامس، ووقعت الاتفاقية فى ربيع عام ١٥٣٨ م

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدافع عن نفوذها فى البحر المتوسط، كان البرتغاليون يثبتون سيطرتهم فى المحيط الهندى، وهو الأمر الذى شكل أخطاراً هددت كيان مصر، لأن البرتغاليين كان همهم الأول

منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج الفارسي العربي ، وتحويل تجارة التوابل والمنتجات الأخرى إلى لشبونه . لذا أرسل السلطان قنصوه الغورى ، مدفوعاً بضرورة المحافظة على تجارة الشرق التي ترد إلى ساحل البحر الأحمر ، أو عن طريق القوافل إلى الموانئ المصرية ، أسطولاً بقيادة الأمير حسين الكردي وأبحر هذا الأسطول في أكتوبر عام ١٥٠٥ م ، وكان قوامه حوالي خمسين سفينة . وبعث السلطان الغورى مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين ، لبناء سور حول ميناء جدة .

وجاء في ذلك الوقت أسطول برتغالى إلى البحر الأحمر ، فى محاولة للاتصال بالنجاشى الذى كان معروفاً لدى الأوربيين باسم برسترجون ، وذلك للوصول إلى اتفاق لإعداد حملة مشتركة يشترك فيها ملك فرنسا الذى عليه أن يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن ، ثم ملك أسبانيا الذى عليه أن تحتل قواته زيلع ، أما ملك البرتغال فعليه أن يتخذ من مصوع قاعدة لقواته .

وخرج الأسطول البرتغالى من سواكن إلى جدة ، املا فى الزحف إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . غير أنه لما علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصرى فى جده هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ، ثم إلى ساحل الهند ، وخرج قائد الأسطول المصرى إلى سواكن ، ثم سار جنوباً متعقباً السفن البرتغالية إلى أن وصل إلى ساحل الهند ، حيث التقى بالأسطول البرتغالى فى ميناء شول على ساحل الهند الغربى . واشتبك الأسطولان فى موقعة انتهت بهزيمة البرتغالين وذلك فى صيف عام ١٥٠٨ م . ثم استطاع الأسطول البرتغالى أن يستجمع قواته ، وأن تصل إليه الإمدادات ، فأنزى فى العام التالى ١٥٠٩ هزيمة ساحقة بالأسطول المملوكى ، حيث أغرقت جميع سفنه فى مياه ديو . ثم فرض البرتغاليون حصاراً قوياً لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانئ العربية ، واستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانئ البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن والسويس ، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها . ولذا ضعف النشاط التجارى فى البحر الأحمر ، وهو الأمر الذى دفع تجار الفرنجة إلى أسواق لشبونه بدلا من

أسواق مصر والشام . واشتدت الأزمة الاقتصادية بسبب ذلك في مصر عام ١٥١٤ م ( ٩٢٠ هـ ) ، وأدت إلى خراب الإسكندرية وجدة ودمياط ، بسبب عدم وصول سفن من الموانئ الشرقية . واستمر الحال على هذا النحو حوالي ستة أعوام ، وباتت الإسكندرية في حالة خراب ، ومرجع ذلك أن عمال الناب في الإسكندرية كانوا يمارسون أعمالهم دون الأخذ بالأمر الواقع ، فصاروا يطالبون التجار بدفع العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنجة والمغاربة من دخول الثغر . وامتنع التجار أيضاً من دخول ميناء جدة ، وآلت إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر ، واشتد الظلم ، وانقطع ورود السلع التي كانت تأتي من أوروبا .

\* \* \*

وعندما وصلت إلى الحبشة أخبار الانتصار البرتغالي على الأسطول المملوكي ، قامت الملكة هيلانة الوصية على ابنها الملك ابنادنقل ( ١٥٠٨ — ١٥٤٠ م ) بمحاولة توطيد العلاقات مع الإمارات الإسلامية في الحبشة ، لفتح طرق التجارة وهو الأمر الذي كان السبب الرئيسي في المشاحنات بين هذه الإمارات والحبشة . وأرسلت الملكة هيلانة البعوث إلى البلدان التي يهيمها الأمر ، ومنها مصر ، غير أن هذه المساعي لم تكلل بالنجاح ، فاتجهت الملكة هيلانة نحو الغرب ، وأرسلت مبعوثها متى الارمني ( مانيو ) إلى نائب الملك البرتغالي الفونسو البوكرك الذي تقابل معه في ميناء ديل الهندية . وطلبت الملكة من ملك البرتغال أن يزوج بنته لأبنائها .

وسافر مبعوث الملكة من الهند إلى لشبونة ، رفقة نائب الملك المشار إليه ، وقابل رجال حكومة البرتغال ، وعاد في عام ١٥٢٠ م ، ومعه سفير برتغالي اسمه دون رود ريجودي ليمبا . ومات المبعوث الحبشي بعد عودته من البرتغال ، دون يقابل الملكة هيلانة وبقي السفير البرتغالي في الحبشة حوالي خمسة أعوام ، لدراسة خطة تهدف نحو تحويل مجرى النيل ، والقيام بهجوم

على مصر والجزيرة العربية . غير أن هذه الخطة التي فكر البرتغاليون في تنفيذها على أن يشترك معهم ملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال ، كما أشرنا من قبل ، لم يكتب لها النجاح ، لأن البرتغال بعد أن تغلبت مع الحبشة على قوات المسلمين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، طالبت الحبشة بالدخول في الكاثوليكية ، أي أن تتبع البابا في روما ، بدلا من تبعيتها للكنيسة المرقسية في مصر . غير أن الشعب الحبشي قاوم هذه الفكرة ، وذهب البرتغاليون من الحبشة .

\* \* \*

واستطاع السلطان قنصوه الغوري بعد غرق الأسطول المملوكي أن ينزل وحدات بحرية جديدة بميناء السويس ، وأرسل الأسطول الجديد تحت إمرة حسين الكردي النائب في جدة ، لمطاردة الأسطول البرتغالي الذي أسرع في الانسحاب من البحر الأحمر إلى الساحل في الهند وأبحر الأسطول المصري إلى المياه الهندية ، غير أنه لم يستطع إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالي وطلب قوة من مصر فجاءت إليه قوة بحرية بقيادة الرئيس سليمان العثماني . ولم تتمكن القوات من إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالي ، بسبب ما كان للبرتغاليين من قواعد قوية على الشاطئ الهندي . لذا انسحب الأسطول المصري إلى جده ، ونجح فقط في إبعاد خطر دخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر . وفي هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية في مرحلتها النهائية ، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغوري الذي كان كبير الأمل في الانتصار على البرتغاليين ، لو لم يتحرك العثمانيون ضده . وكان الغزو العثماني لمصر مفاجأة أيضا للفرنجة ، وخيبا لآمالهم بعد أن نجحوا في حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها .

والحق أن هذه نقطة جديدة بالوقوف عندها ، فالسلطان العثماني كان يعلم بنشاط مصر في محاربة النفوذ البرتغالي ، وبما يبته الأوربيون لمصر ، فبدلا من

مساندة السلطان العثماني لمصر حتى تتغلب على أزمته، أنزل بها ضرباً قاسماً أضاعت معها جهودها في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ولم تستطع الدولة العثمانية من مواصلة نشاط مصر في تلك المناطق إلا بعد حوالي عشرين عاماً، استطاع البرتغاليون خلالها من تقوية مراكزهم. وجاء الأسطول العثماني، ولم يكن في تصميمه ما يجعله قادراً على الملاحة في المحيط الهندي لأنه بنى على تصميمات السفن للملاحة في البحر المتوسط.

\* \* \*

وحاول السلطان سليم العثماني بعد دخوله مصر إرسال قوة بحرية إلى المحيط الهندي، لحماية البحر الأحمر والخليج العربي من نشاط البرتغاليين، وأنشأ لهذا الغرض ترسانة في السويس وعهد إلى كبير وزرائه، إبراهيم باشا بتنظيمها وأرسل السلطات، في عام ١٥٢٥م قطعاً بحرية إلى اليمن ليطرد النفوذ العثماني عليها، وبعد دخول العراق تحت سيطرة الحكم العثماني نقلت الأخشاب لبناء أسطول كبير للقيام بإغارة بحرية على والمراكز البرتغالية في المحيط الهندي. وتم بناء الأسطول العثماني عام ١٥٤١م، وكان بحارته من رعايا البندقية. واحتل العثمانيون ميناء عدن وبعد ذلك بسنوات قليلة قام قائد برتغالي اسمه استيفانو — دي — جاما بغزوة جريئة على ميناء السويس، وذلك في عام ١٥٤١م واتصل البرتغاليون بالحبشة، وقدموا لهم مساعدات عسكرية في حربهم ضد الإمام أحمد قرين الذي قدمت له الدولة العثمانية قوة من رجالها، غير أن هذه القوة انسحبت بعد الانتصار الذي أحرزته قوات الإمام، وظهر البرتغاليون مع الحبش، فكانت لهم الغلبة على جيش الإمام في عام ١٥٤٨م.

\* \* \*

والمعروف أن البرتغاليين جاءوا إلى المحيط الهندي وقلوبهم مليئة حقدًا على المسلمين، وفي عزمهم اقتلاع النفوذ الإسلامي من المنطقة باجمعها، واليخالف مع الحكام المحليين على ذلك السعي. ومن ذلك أن الحملة البرتغالية الأولى عادت إلى البرتغال، وحملت معها نماذج من السلع الآسيوية، كما نقلت إلى الملك عمانوئيل

أن سكان المبار من المسيحيين على مذهب هرطقي . وعلى ضوء هذه المعلومات الخاصة بالعقائد أراد الملك أن يجتذب إليه ملك الهند الذي كان يعرف بالساموري، للعمل ضد المسلمين. وقامت الحملة البرتغالية الثانية — وكانت أكبر من الحملة الأولى — مكونة من ثلاثة عشر مركباً، وعليها ١٥٠٠ رجل. وأعطيت قيادتها إلى بدر والفارس كبرال وكانت الأوامر التي صدرت إليه إقامة محطات تجارية، ووكالة أعمال في قليقوط، وأن ينزل القسس في هذه الأماكن لتعريف الأهالي بالمسيحية الصحيحة، كما يعلمها البرتغاليون . وكان على القائد البرتغالي أن يشحن بضاعته، وبعد ذلك يتحدث إلى الحاكم باتجاه البرتغاليين نحو معاملة المسلمين وذلك بالاعتداء على سفنهم في البحار، وأن يطلب من الحاكم طرد العرب المسلمين من مدينته قليقوط بوصفه حاكماً مسيحياً .

وصل كبرال في شهر سبتمبر سنة ١٥٠٠ إلى قليقوط، ومعه ستة مرابك فقط، وحاول إقامة محطة تجارية في هذه المدينة غير أن المسلمين لم يلبثوا أن دبروا حالة شغب محلية قتل فيها ٤٨ برتغالياً. وخربت مستودعات المحطة التجارية البرتغالية الجديدة ثم أطلق البرتغال نيران مدافعهم على المدينة الموكولة إلى دالميدا وتركوها وساروا إلى كوشين الواقعة جنوب قليقوط، على ساحل الملبار . ووجد كبرال أن حاكم قليقوط لا يدين بالمسيحية بل هو هندوسي، ففشلت بذلك الخطة التي وضعها ملك البرتغال ولم ينجح مبعوثه في مهمته إلا قليلاً، بسبب معارضة العرب . وأرسل الملك عمانويل في عام ١٥٠٢م فاسكو دي جاما إلى الهند للحصول على تعويض عن حوادث عام ١٥٠٠م التي قتل فيها ٤٨ برتغالياً، وخربت في أثناءها الممتلكات البرتغالية . وأرسلت أيضاً بعض قطع بحرية إلى مدخل البحر الأحمر للهجوم على سفن المسلمين. وعين ملك البرتغال في هذه السنة دوق فرانسيسكو في الشرق، وزوده بتعليقات كثيرة، منها إنشاء حصون في كلوه وانجديقا وكانت كلوه مدينة إسلامية معادية للبرتغال . وكان الغرض من إقامة هذه الحصون تزويد السفن البحرية بالمياه العذبة الحصنين على أن يبدأ دوق دالميدا في بناء حصنين آخرين أحدهما في كوشين والثاني في كنورو كانت المهمة الثالثة هي الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر، لبناء حصن في موقع مناسب لمنع السفن التي تحمل التوابل من الدخول إلى مصر. وبذا يفقد الهنود أملهم في المتاجرة مع غير البرتغاليين وبعد

الانتهاء من هذه المأموريات كان على دالميدا أن يذهب إلى ساحل الملبار لإقامة حصن في كولام الهندية، وهي مركز تصدير الفلفل وتقع جنوب كوشين وكان على نائب الملك كذلك أن يراقب شحن الفلفل إلى البرتغال وأن يتخذ ما يراه من إجراءات ضد قليقوط، وأن يتعامل في سلام مع راجا كوشين إذا وافق هو على طرد المسلمين . وكان على الميدا أيضاً أن يرسل سفناً برتغالية إلى هرمز في الخليج الفارسي العربي وإلى ساحل الهند — ولا سيما دبول و كوجرات وشول ويتخذ من هذه البلاد قواعد للهجوم على السفن العربية . واشترط الملك البرتغالي في تعليماته أنه في حالة قبول الحكام المسلمين في هذه المدن للبرتغاليين أن يدفعوا أتاوة وأن يسمحوا للسفن البرتغالية بدخول الموانئ لشراء الحاجيات المطلوبة .

واستطاع دالميدا تنفيذ تعليمات بناء الحصون في كلوه وميسه وانجديقا وكونور وكوسين ، وحاول الهجوم على السفن الإسلامية في عام ١٥٠٦ م، غير أنه لم يوفق . ولم يتمكن نائب الملك من بناء الحصن المطلوب عند مدخل البحر الأحمر واستعاض عنه باحتلال جزيرة سقطره التي اختارها لتكون قاعدة للهجوم على السفن التجارية التي تحاول الدخول إلى البحر الأحمر، وتم ذلك في عام ١٥٠٧ . غير أن رفض الفونسو دي البوكيرك قائد السفن البرتغالية رفض إطاعة أوامر نائب الملك وذهب إلى هرمز بدلا من الهند وحاول إقامة حصن هناك لكن مقاومة السكان وهرب بعض البرتغاليين جعلت مهمته عسيرة . وأرسل نائب الملك حملات برتغالية لبناء حصون في سوفاله وموزنبيق .

وبدأت عمليات القرصنة على سفن المسلمين، واستمرت هذه الحركة التي قصد بها اقتلاع جذور النشاط العربي من منطقة المحيط الهندي، واحتكار التجارة في أيدي حكومة البرتغال . ووجد البوكيرك أن هذه العمليات سوف تخلق جواً من عدم الثقة كما أنها لم تدخل إلا ربحاً قليلاً إلى خزانة الدولة ، ووجد أيضاً أن غالبية الغنائم الغالية الثمن يختلسها الضباط والجنود . فكان عليه أن يغير من سياسة البرتغال التي ترمي إلى احتكار التجارة كلية وطرد العرب المسلمين . وقد أخذ بعين الاعتبار في قراره هذا وجود قوات بحرية مصرية وقوات أخرى من سلطنة كوجرات ، ووجد البوكيرك أن الأمل ضعيف في إرضاء العرب لذلك

رأى أنه من الضروري أن يقيم حصوناً في المراكز التجارية الرئيسية، وهي عدن .  
وهرمز . ديو . وجوا . وهذه كانت في فكرته منذ زمن وأضيف إليها مصوع  
الواقعة جنوباً على ساحل البحر الأحمر وأراد البوكيرك أيضاً أن يجعل حكام  
هذه المراكز من البرتغاليين على أساس أن قيام منشآت برتغالية في هذه المراكز  
وعليها حكام من بني جنسه يخفف الضغط من جانب، الآسيويين ويطلق يدهم في إدارة  
شؤونهم التجارية وغيرها . وكان البوكيرك يخشى دخول الأسطول المصري  
إلى بحر العرب لمقاومة الأسطول البرتغالي لأن دخول الأسطول المصري  
إلى هذه المياه سيقوى أعداء البرتغال في الهند وغيرها . ووجد البوكيرك أن  
بناء الحصون في المراكز التي سبقت الإشارة إليها سوف يجعل مراكز البرتغال  
في الهند في أمان وسوف يفتح الطريق إلى البحر الأحمر للهجوم على جده ،  
وأراد بذلك أن يحول الصراع على التجارة في المحيط الهندي إلى حرب صليبية  
لأنها في رأيه ضرورة لازمة لحكومة البرتغال وللخدمة المسيحية ورأى  
البوكيرك أن الهندوس والمسيحيين المحليين لا يملكون سوى رأس مال قليل ،  
ولا يستطيع هو تدمير تجارة المسلمين في سرعة لأن المسلمين لهم مال وفير وتخدم  
تجارتهم أعداد كبيرة من السفن . واستقر رأيه على أن التجارة مع الشرق يجب  
أن تكون مع المسلمين الذين كان اشتغالهم بالتجارة بعيد الجذور ، وليس من  
السهل على البرتغاليين اقتلاعهم . وأخذ يفكر في الوسائل التي تساعد على نجاح  
مهمته، ومن هذه الوسائل الاستيلاء على جزء من تجارة المسلمين، وتحويل الجزء الباقي  
عن طريقه مع المراكز التي كانت معدة لإقامة الحصون إلى مراكز تجارية ،  
التجارة إلى البحر الأحمر . نهائياً إلا بعد الحصول على إذن خاص .

واحتل دالبو كيرك مدينة جوا التي أراد أن يجعل منها مركزاً تجارياً للبرتغال  
في آسيا، واحتل بعد ذلك الملقا . ثم انسحبت القوات البرتغالية من جزيرة سقطره،  
لأن دالبو كيرك وجدها ليست بذات فائدة ما، وحاول احتلال عدن، ولكنه فشل .

ودخلت القطع البرتغالية إلى البحر الأحمر، وهو الأمر الذي ترك انطباعاته القوية  
في مصر المملوكية والدولة العثمانية . وحاول دالبو كيرك إنشاء حصن في ميناء ديو  
عن طريق المفاوضات، غير أنه لم ينجح . وعمل في نفس الوقت على إنهاء حالة الحرب

مع قاليقوت التي تولى حكمها سامورى جديد ، بعد مقتل سلفه عن طريق السم بايعاز دالبو كيرك . وأعطى السامورى الجديد للبرتغال إذناً ببناء حصن فى قاليقوت ، كما منحهم حق الاتجار فى الفلفل . وسافر دالبو كيرك بعد ذلك إلى هرمز ، لتقوية النفوذ البرتغالى ، وقرر أن تمتد رحلته إلى البحر الأحمر فى عام ١٥١٦م غير أن ظروف إبعاده عن مركزه وموته حالت دون ذلك .

وفى عهد دالبو كيرك وصل نفوذ البرتغال من الخليج الفارسى العربى إلى الملايو ، واستطاع البرتغاليون أن يكون لهم سلطان ونفوذ سياسى على ساحل الهند الغربى بالقرب من مدن الملقا وهرمز ، كما أنهم استطاعوا بناء الحصون فى المراكز الاستراتيجية وصار بذلك لأسطولهم نفوذ قوى على التجارة ، غير أن دالبو كيرك أغفل أن يجعل النشاط البرتغالى قائماً على كفاية ذاتية من حيث المال والرجال .

ويبدو أن دالبو كيرك بالغ فى تقديره لثروة أرخبيل بلاد الملايو، لأن سياسته هذه شجعت عدداً من مواطنيه على السفر إلى تلك البلاد . وأعطى دالبو كيرك للتجار أهمية كبرى فى الشؤون البرتغالية ، وهو الأمر الذى جعل البرتغاليون لا يفكرون كثيراً فى منازلة المسلمين . وقرر دالبو كيرك أن بناء الحصون التى اقترحها دالميدا سيكلف مالا كثيراً ، وأنه لا ضرورة لها ، ويقول فى رسالة بعث بها إلى الملك « إن العدد الكبير من الحصون التى نقيمها سيكون له أثره فى إضعاف القوة المحاربة، واجعل كل الاعتماد على الأسطول، لأننا إذا لم نكن أقوىاء فى البحر فإن كل شىء سوف يكون علينا .

ويبدو أن الأمر الذى دفع دالميدا إلى التفكير فى بناء الحصون هو خوفه من احتمال حدوث كارثة إذا أصيب الأسطول بخسارة . وكان دالميدا يأمل فى المنفعة التى تنجم عن بناء هذه الحصون ، وكان فى حالات تفكيره فى سياسة بلده يريد أن يجعل من هذه الحصون ما يناسب حاجة بضعة آلاف من الرجال وعدد قليل من قطع الأسطول . وبعد وفاة دالبو كيرك بذل خلفاؤه الجهد الكبير لتثبيت ما كسبه هو فى النواحي السياسية والاقتصادية ، وهذا بالرغم من أن أخطاه كانت عديدة .

وقرر ملك البرتغال احتكار عدد من السلع التجارية ، وجاء في قانون الهند البرتغالية لعام ١٥٢٠م بيان هذه السلع ، وهي الفلفل والزنجبيل والقرفة والدارصيني والقرنفل وجوز الطيب والحرير .

ولم يسمح هذا القانون للمسيحيين والمسلمين أو الهندوس بالتجارة في هذه الأصناف ، دون الحصول على تصريح ملكي ، كما حرم على عدد كبير من موظفي الدولة ممارسة التجارة لحسابهم الخاص . غير أن هذا القانون لم يكن معمولاً به في كثير من الأحوال ، إذ قام البرتغاليون والآسيويون بنخرقه ، ولم يكن من المعقول منع المستوطنين من البرتغال من التجارة ، لأن عدداً كبيراً منهم كان يصرف لهم جزء من رواتبهم عينية ، واستمر ذلك حتى السنوات الأخيرة لحكم الملك عمانويل الأول . وبعد وقف صرف جزء من المرتب من السلع على هذا النحو . لم يكن في إمكانيات التاج البرتغالي منع ضباطه من التجارة ، لأن المرتبات كانت قليلة وغير كافية . ودخل الفساد في إيرادات الدولة وهو الأمر الذي جعلها غير قادرة على دفع مرتبات الموظفين ، أي أن المرتبات الضعيفة خلقت الفساد ، وجعلته يستشري ، وسهلت للموظفين ممارسة التجارة التي انتشرت بين الموظفين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي .

وأظهر الآسيويون طاعتهم للقانون ، عندما لم يكن هنالك اختيار ، كما أنهم في بعض الحالات تجاهلوا القانون ، أو قدموا الرشوى للسماح لهم بالتجارة . ولم يكن من السهل على حكومة البرتغال إحكام احتكارها بدقة ، وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي أهمل التجار من الآسيويين هذه القوانين ، وأخذوا في نقل التوابل ومنها الفلفل إلى البحر الأحمر . ثم إن مشروع دالبو كيرك الذي طلب من الآسيويين الحصول على تصريح لسفنهم لم يلق اهتماماً ، ولم يكن في مقدور القوات البرتغالية المتغيرة أن تباشر رقابتها على التجارة البحرية . وكان هنالك إحكام للرقابة على بعض موانئ ساحل الهند الغربي ومنطقة هرمز ، ومع ذلك كان التهريب سهلاً .

وتولى شؤون تجارة ملك البرتغال إدارة اسمها بيت الهند في لشبونه ، وكان عمل هذا البيت مراقبة شؤون الإدارة البرتغالية عامة في الشرق . وكانت السفن تذهب في كل عام من لشبونه إلى ساحل الملبار لنقل التوابل للملك ، وكانت السفن تؤجر لهذه السفريات . ومنعت القوانين هذه السفن من قبول الغنائم أو مخالفة أوامر قبطان كل سفينة .

الشاطر بصيلي عبد الجليل

## بعض مصادر هذا البحث

ابن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . ( طبعة القاهرة ، وجمعية  
المستشرقين الألمان ) ، خمسة أجزاء .

Axelsson, (Eric) : Portuguese in South - East Africa 1600-1700.  
(Johannesburg 1960).

Coupland, (Sir Reginald) : East Africa and its Invaders.  
(Oxford, 1938).

Gray, (Sir John): Early Portuguese Missionaries in East Africa.  
(London, 1958).

Ibid. History of Zanzibar. (Oxford).

Oliver & Mathew : History of East Africa, Vol I, 1963.

Serjeant, (R.B) : The Portuguese of the South Arabian Coast,  
(Oxford, 1963).

Stigand, (C.H) : The Land of Zinj. (London, 1913).

Strandes, (Justus) : The Portuguese Period in East Africa.  
(Nairobi. 1961).

Vambery, (A), The Travels and Adventures of the Turkish  
Admiral Sidi Ali Reis, (London, 1899).